رئيس التحرير

الجهاد الاقتصادي

الخلفية الثقافية

(الصفحات ٧- ٣٦)

أعلنت القيادة الإسلامية في إيران هذا العام عام الجهاد الاقتصادي. وربّما يتبادر إلى الأذهان أن هذا الإعلان لا يرتبط بالشأن الثقافي، غير أن العبد الصالح الإمام الخامنئي أوضح في حديثه بمناسبة حلول السنة الشمسية الهجرية الجديدة أن الهدف من الإعلان هو: «العمل في الميدان الاقتصادي بتحرك جهادي.. فالحركة الطبيعية ليست كافية، إنما ينبغي أن يكون لنا طفرة في هذا المضمار».

هذا التوجه يدعونا إلى أن نستعرض في مقالنا الافتتاحي القاعدة الأخلاقية والفكرية في الاقتصاد الإسلامي.

أثر التحديد الذاتي

يبدأ الإسلام عمله من داخل الإنسان.. ويصوغ محتواه الداخلي بشكل يرتب عليه كل تخطيطاته الاجتماعية والاقتصادية.. والإنسان المسلم بموجب هذه الصياغة تتحدد حريته في تعامله وتحركه، ولكن هذا التحديد غير مفروض على الإنسان، بل إن دور الإنسان هو دور المريد في هذا التحديد.. ولذا فسوف لا يشعر بقيد يكبله ولا بسلطة لابد أن يرضخ لها شاء أم أبى.

وقد لعبت هذه الرقابة غير المنظورة دورها في المجتمع الإسلامي وأدّت فعاليتها بمقدار قد يفوق الدور الذي تلعبه الدولة صاحبة التخطيط المركزي في عملية التنفيذ والتطبيق .

وقد شهد المجتمع الإسلامي إبان الشوط القصير الذي مرت فيه الرسالة بدور التطبيق أروع الصور التي برز فيها عطاء هذه الصياغة الداخلية وهذه التربية الخلقية السامية. فالمرأة الزانية التي تأتي رسول الله(ص) تطلب منه أن يطهرها، والسارق الذي يأتي بنفسه يطلب إقامة الحد عليه، والرجل الذي يطلب من الرسول أن يسمح له بأن يهب كل ما يملك في سبيل الله، كل تلك صور اعتاد المجتمع عليها وأصبحت الطابع المقوّم للكيان الذي بناه الإسلام.. وماكانت هذه إلا ثمرة للصياغة التي أحكم الإسلام كل دقائقها وجزئياتها.. تلكم هي صياغة الشخصية الإسلامية، هذه الشخصية التي كانت ولاتزال مصدر خير وعطاء للبشرية جمعاء.

ولايزال هذا التحديد الذاتي يلعب دوره الآن في مجالات البر والإحسان بالرغم من ابتعاد المسلمين عن روح التجربة العملية للشريعة الإسلامية.

وما اندفاع ملايين المسلمين لأداء فريضة الزكاة وبقية حقوق الله بملء حرياتهم إلا ثمرة من عطاء هذه الصياغة وهذا التحديد بالرغم من انحطاط مستواهم الفكري والنفسي، ولو قدر لتلك التجربة القصيرة التي مر بها الإسلام أن تمتد لشهدت الإنسانية أروع صورة للخلافة التي شاءها الله للإنسان على هذه الأرض. ولصنعت عالمًا زاخراً بمشاعر العدل والرحمة ولا جتثّت كل دوافع الشر والظلم من نفس البشرية التي منيت بمناهج لاتفهم للتربية النفسية والصياغة الداخلية معنى، وإنما نظمت الشكل الظاهري من علاقة الإنسان بمحيطه المادي، فراح هذا الإنسان وفق هذا المنهج الذي لا يمسّ جوهره يعيث في الأرض فساداً، ويتفنن في وسائل الدمّار والتخريب.

الأخلاقية في الاقتصاد الإسلامي

من الصفات المهمة للاقتصاد الإسلامي هي الأخلاقية:

وتتمثل هذه الأخلاقية في الغاية والطريقة.

أ- الأخلاقية من ناحية الغاية: إن غاية الاقتصاد الإسلامي لا تنبع من واقع خارج حدود الإنسان، فالماركسية في تحديدها لحق العامل وللضمان الاجتماعي كانت تنطلق من واقع وسائل الإنتاج وتطورها، وتنظر إلى الواقع المادي للإنسان كمحدد للشكل الاقتصادي الذي يسود، بينما ينطلق الإسلام في تحديده للقيم العملية التي يجب أن تسود من ناحية خلقية.

ب – الأخلاقية من ناحية الطريقة: إن الإسلام في طريقته يهتم بالعامل النفسي ويجعل الطريقة مسنجمة مع أحاسيس ومشاعر الإنسان ومتفاعلة معها.. وعملية التكافل الاجتماعي قد تتمّ بأخذ الضرائب من الأغنياء عن طريق القوة وإعطائها إلى الفقراء، ولكن هذه الطريقة ليست في نظر الإسلام صحيحة وإن كانت تؤدي الجانب الموضوعي من الغاية وهي إشباع حاجة الفقراء ، بل يجب أن تكون الطريقة أخلاقية، يجب أن ينبعث شعور التكامل من وجدان الإنسان المسلم وينطلق من مشاعره.

وهذا الاهتمام الكبير من قبل الإسلام بالأخلاقية يرينا مدى الاهتمام بالصياغة النفسية والروحية والخلقية للإنسان في المجتمع الإسلامي وبالتالي مدى الاهتمام بالتحديد الذاتي كمنطلق لتحقيق التوازن والتكامل الاجتماعي.

الاقتصاد الإسلامي يقوم على أرضية فكرية وخلقية

أود قبل أن أتكلم عن الأرضية الإسلامية توضيح علاقة الأرضية بالمذهب والصلة المتبادلة بينهما. إن أي تخطيط اجتماعي أو اقتصادي لا يمكن أن يكتب له النجاح إلاّ بعد أن يكوّن إطاراً يستطيع أن يدمج الأمة ضمنه ولا يمكن لأي منهج أن يؤدي دوره الفعال الاّ إذا استطاع أن يحرك الأمة ويفجّر طاقاتها بأن يبعث فيها حركة دائبة لا تعرف الملل.

ولو ألقينا نظرة على المناهج السائدة اليوم في أوربا لرأيناها تلتقي والأرضية الأوربية وتلتئم ومشاعر الإنسان الأوربي، فإنسان أوربا يعيش أخلاقية تتكون من

مزيج من إيمان عميق بالحرية ونظرة متأصلة في الأرض لا ترتفع إلى السماء، وشعور واضح بالفردية والأنانية، وتمثل هذا جليًا في كل تطلعات الإنسان الأوربي العلمية والفكرية حينما ذهب يبحث عن أصله بين فصائل الحيوان وبدأ يفسر سير البشرية والصرح الإنساني كله على أساس الصراع والتناقض بين القوى المنتجة وحتى إله المسيحية أنزله من السماء إلى الأرض وجسّده بهيئة كائن أرضي.

ومن هذا المزيج انطلقت فكرة الاقتصاد الحر التي تمثل الفردية الشخصية، وفكرة الاقتصاد الاشتراكي التي تمثل الفردية الطبقية وفكرة الوجودية التي تمثل قمة شعور الإنسان الأوربي بالحرية.. من هنا لا نستغرب حينما نرى الإنسان الأوربي في ظل هذه الأنظمة بدأ بتفاعل إيجابي مع المادة.. يستغل خيراتها ويكتشف أسرارها.

ولم يكن غريبًا أيضا أن نرى هذه النهضة العلمية في أوربا.. وحركة الإنسان الأوربي الدائبة في تفاعله مع وسطه المادي، لأن المنهج الذي يعمل ضمنه يمثل إطار تفكيره ويعبر عن مزيج أخلاقيته. ومن هنا أيضًا لا نستغرب حينما نرى الإنسان المسلم تسود ذهنه نظرات سلبية إلى الحياة المادية تتمثل في الزهد تارة وفي القناعة تارة أخرى، ومؤدية إلى العزلة والانطواء.

إن السلبية التي تسود ذهنية المسلم اليوم لم تنبع من الأخلاقية التي يعيشها، بل نتجت بعد أن قدمت له الأرض بشكل لايتلائم والإطار الخلقي الذي يعيشه.

الإنسان المسلم يحتاج إلى منهج تلبس الأرض فيه لباس السماء، ويتعامل مع محيطه المادي وفق مقياس الوجوب والاستحباب وعند ذاك سوف يندفع في حركة لا حدود لها، وسوف تتفجر الطاقات الخلاقة في نفسه، وسوف يعمر الأرض لا ماديًا فحسب بل يتغلغل إلى داخل النفس الإنسانية مجتثًا منها كل دوافع الحقد والظلم، مكونًا المجتمع الذي تطمح كل الإنسانية اليوم إليه، وإن غفلت عنه، ذلكم هو المجتمع الإسلامي.

ان الأرضية الإسلامية تتكون من عناصر ثلاث هي:

العقيدة والمفاهيم والعواطف.

فالعقيدة تحدد نظرة الإنسان إلى الكون وتعطيه التفسير الكامل عن الوجود، وعلى ضوء هذه العقيدة تنشأ عند الإنسان المسلم نظرات معينة إلى الأشياء وتحديدات ثابتة لها، متمثلة في (المفاهيم) وهذه المفاهيم تبعث في نفس الإنسان أحاسيس ومشاعر معينة يظهر فعلها وعطاءها في الخارج متمثلة في (العواطف) التي تكون عنصرًا مهمًا من عناصر التربة التي يعيش عليها النظام الاقتصادي الإسلامي. ومن هنا نعلم أن الاقتصاد الإسلامي لا يمكن أن يخطط له مركزيًا في ظروف كالظروف التي نعيشها من أجل تطبيقه كما يفكر المتحمسون للاقتصاد الإسلامي اليوم. إن تطبيق الاقتصاد الإسلامي يبدأ بتهيئة التربة الصالحة له، يبدأ بتربية وفق عقيدة الإسلام وبث المفاهيم المنبثقة من هذه العقيدة كي تتفجر في نفس المسلم المعاصر الأحاسيس والمشاعر التي يستطيع أن يحتضن بها الاقتصاد الإسلامي ويتطلع إلى مجتمع أفضل هو المجتمع الإسلامي.

الدافع الذاتي في إطار الدين

إن الدافع الذاتي نزعة متأصلة في النفس الإنسانية. والإنسان في كل تطلعاته وتصرفاته ينطلق من هذا الدافع ، لذا كان سلوك الإنسان وأخلاقيته مظهرًا لهذا الدافع، ويتكيف الجانب الخلقي والجانب السلوكي للإنسان تبعًا لتوجيه هذا الدافع وتكييفه.

ويشكل الدافع الذاتي عقبة كبرى أمام أي تخطيط اجتماعي، بل يمكن القول بأن هذا الدافع هو مثار المشكلة الاجتماعية، فالنزعة الذاتية لما كانت تصطدم بالمصلحة الاجتماعية فكل تخطيط يضمن مصالح الفرد الذاتية يصطدم بالمصلحة الاجتماعية وكل تخطيط يهدف مصلحة المجتمع يتعارض مع الدافع الذاتي للفرد.

ولما كانت هذه النزعة فطرية ومتأصلة فلا يمكن القضاء عليها أولا.. ومن ثم لا يستطيع أي جهاز اجتماعي كالجهاز الحكومي مثلا أن يخطط للقضاء على هذه النزعة لأن هذا الجهاز جزء من المجتمع ويسري عليه مايسري على المجتمع من نزعات الدوافع الذاتية.

وبذا فسوف تبقى المشكلة معلقة والصراع محتدم مازالت المسألة في مستوى تخطيط أرضي ومنهج بشري.

وهنا يأتي دور الدين باعتباره العلاج الوحيد لما ينجم عن الفطرة من مشاكل وباعتبار أن الدين جاء ليكون متممًا للفطرة الإنسانية السليمة لتوجيه الإنسان إلى طريق كماله.

فالدين يقرّ بوجود الدافع الذاتي ولكنه يوجهه توجيهًا يرتفع عن مستوى الأرض ويربطه بالعالم الآخر.

فالإنسان المسلم بحكم تربيته يفكر بمجتمعه ويعطي من نفسه الكثير لصالح المجموع.. ويضحّي بماله ودمه أحيانًا في سبيل المصلحة الاجتماعية ، كل هذا يقدمه الإنسان المسلم منتظرًا العوض المضاعف في الدار الآخرة.

فالمصلحة الاجتماعية مضمونة، والمصلحة الفردية مضمونة أيضًا. ولا يمكن لمصلحة ذاتية للإنسان أن تكون إيجابية ومعطاءة في أي إطار كالإطار الذي يصوغه لها الدين وكالمنهج الذي يقدمه.

والقرآن الكريم في دفعه للإنسان المسلم يكوّن له هذه النظرة عن مصالحه وأرباحه فيقول: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ، وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (التوبة/١٢٠-١٢١).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاء فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت/٤٦)

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (الزلزلة/٦-٨). من هنا نعرف معنى دين الفطرة ومعنى القيمومة التي وصف الله تعالى بها رسالته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ التي

فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم/٣٠).

التفسير الاقتصادي للسلوك والأفكار

أشاع اليساريون تفسير كل مظاهر السلوك تفسيرًا اقتصاديًا وتضيف الناس تصنيفًا طبقيًا والحكم على اتجاهات هذه الفئة وتلك الجماعة من خلال مستواهم المعاشي. ونحن لا نريد أن نرجع هذه الأقاويل إلى المادية التاريخية لنتبين خطأها بل نستعرض بعض النماذج من الأهداف التي دعا إليها الإسلام والّتي يجب أن تظهر في «عرف الماركسية» عند ظهور الطبقة البرجوازية وبعد انتشار الصناعة:

١ـ دعا الإسلام إلى المساواة ونبذ كل تفرقة بسبب اللون أو العنصر أو اللغة فـ «الناس سواسية كأسنان المشط» في العرف الإسلامي، و«لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ولم يكن هذا بالمستوى النظري فقط وإنما استطاع أن يعكس هذه المفاهيم على الواقع الاجتماعي ويجسدها في العلاقات الاجتماعية. علما بأن الماركسية كانت تزعم بأن عَلَم المساواة يجب أن ترفعه الطبقة البرجوازية التي تظهر في المجتمع الصناعي.

٢- تحدى الإسلام المادية التاريخية بدعوته إلى مجتمع عالمي يجمع الإنسانية كلها على صعيد واحد. فمن بين تلك الحياة العشائرية البدائية ظهرت هذه الفكرة ومن بين تلك العقول الضيقة الأفق شعت هذه الدعوة، فأي وسيلة للإنتاج طورت هذا التفكير وأية آلة غيّرت نظرة أقوام لا يدركون المجتمع القومي فأصبحوا في فترة قصيرة دعاة مجتمع عالمي؟!

٣- ومرة أخرى يتحدى الإسلام منطق التاريخ الماركسي حين يقيم علاقات اقتصادية لا يمكن أن تقوم في حساب الاقتصاد الاشتراكي إلاّ بعد بلوغ المجتمع درجة من المرحلة الصناعية والآلية في الإنتاج، فقلص الملكية الفردية وحدد مجالها وأعطاها مفاهيم وقيم معينة لتهذيبها ووضع ضمانات التوازن وعدالة التوزيع.. في الوقت الذي

يقول منطق القرن الثامن عشر على لسان آرثر يونج «لا يجهلن سوى الأبله أن الطبقات الدنيا يجب أن تظل فقيرة، والاّ لن تكون مجتهدة» ويقول منطق القرن التاسع عشر على لسان مالثوس: «ليس للّذي يولد في عالم تم امتلاكه حق في الغذاء إذا ما تعذر عليه الظفر بوسائل عيشه عن طريق عمله أو أهله، فهو طفيلي لا لزوم لوجوده، إذ ليس له على خوان الطبيعة مكان، والطبيعة تأمره بالذهاب ولا تتوانى في تنفيذ أوامرها» بينما يقول الإسلام معلنًا مبدأ الضمان الاجتماعي:

«من ترك ضياعًا فعلي ضياعه، ومن ترك دَينًا فعليّ دينه».

ويعلن الإسلام بأن الطبيعة ليست هي سبب جوع الفقراء، بل هو بسبب سوء التوزيع وفساد العلاقات فيقول الحديث: «ماجاع فقير إلا بما مُتّع غني» ومن كل هذا نستنتج بأن العلاقات الاقتصادية لم تقم على أساس تطور وسائل الإنتاج ولا على أي أساس مادي آخر، بل إنها قائمة على أسس فكرية وروحية تمتزجان فتكونان أخلاقية معينة، وهذه الأخلاقية هي التي تحدد العلاقات الاقتصادية وترسم طريق العدالة الاجتماعية.

مشكلة التوزيع في نظر الإسلام

إن لكل مذهب اقتصادي نظرة معينة في التوزيع تنسجم والإطار العام للمذهب فالشيوعية في معيارها للتوزيع كانت تعتمد على قاعدة: من كل وفقًا لطاقته ولكل وفقًا لحاجته. والنظرة الاشتراكية تقول: من كل حسب طاقته ولكل حسب عمله. والاشتراكية بعد الماركسية تعتقد بأن التوزيع يتحدد وفقًا لحالة الصراع الطبقي في المجتمع. فطبقة العبيد التي كانت تعيش تحت سياط السادة كان وضعها شيئًا سائغًا في ظروف تتطلب هذا النوع من الصراع بين السادة والعبيد.

ويقف الإسلام موقف المعارض لهذه النظرة، ويثبت مسألة التوزيع على أساس خلقي.

فالطبقة التي حُرمت من العمل بسبب ظروف جسمية وفكرية يكون مصيرها الحرمان في منطق الاشتراكية بينما يقرر الإسلام بقوله: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات/١٩) فهذه الفئة هي جزء من المجتمع الإنساني ولابد للمجتمع السعيد الذي يشيد دعائمه الإسلام أن يقلّص آلام الحرمان إلى أبعد حد ممكن. وعلى هذا الأساس الخلقي لا تحرم هذه الفئة من التكافل والضمان لمجرد أنها محتاجة لذلك. ومن هنا نعرف أن المشكلة الاقتصادية في نظر الإسلام هي أخلاقية صرفة، فالنظرة الماركسية تذهب إلى أن المشكلة الاقتصادية ناتجة عن التناقض بين شكل الانتاج وعلاقات التوزيع، بينما يذهب الإسلام إلى أن المشكلة الاقتصادية نابعة من الإنسان نفسه حين يقرر في الآيات الكريمة: ﴿ اللّهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(ابراهيم/ ٣٢- ٣٤).

فهذا الكون الفسيح كله مسخر لمنفعة الإنسان ولمصلحته ولكنه ظلوم كفار كما تقرر الآية الكريمة.

فالظلم والكفران هما سبب المشكلة الاقتصادية، فالظلم يتمثل في سوء التوزيع ويتمثل الكفران في إهمال الإنسان لا ستثمار معطيات الطبيعة.

فالإنسان إذن هو سبب المشكلة، وهو القادر على حل المشكلة حينما يقيم علاقات مع هذا الكون تسمو على العلاقات المادية ويعيش الوسط الذي يحيطه وفق مقاييس فكرية وروحية.

أخلاقية الملكية في الاقتصاد الإسلامي

إن الملكية في الإسلام تُفسر على الطريقة المذهبية على أساس العمل وصلة العامل

بنتاج عمله وهذا مالسنا بصدده، إذ نحن بصدد التفسير الخلقي للملكية الذي يحدده مفهوم الخلافة، واعتبار أن الإنسان خليفة ووكيل في هذه الأرض، هذا المفهوم الذي يؤطر الملكية بالإطار العام لصياغة الإسلام للفرد في تحديد مشاعره ونشاطه.

ولهذا التفسير الخلقي الذي يربي الإسلام أفراده وفقًا لمقاييسه معطياته الكبيرة وأهمها هي:

١ـ إن مفهوم الخلافة يقيّد الإنسان المسلم ويشده إلى تعليمات مَنْ وهبه هذه الخلافة، قال تعالى ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الحديد/ ٧).

وتنمو وفق هذا المفهوم الرقابة غير المنظورة في نفس الإنسان المسلم لأنه يشعر دائمًا بأنه مراقب في كل تصرفاته وأعماله فيقول تعالى: ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس/١٤).

٢- إن الإنسان المسلم على ضوء هذا المفهوم سوف يكون أمام رقابة أخرى هي رقابة المجتمع، فالخلافة في الأصل للجماعة، وعليها تقع مسؤولية حماية المال لأنها وكيلة عليه، فلا يجوز أن تسمح للسفهاء أن يتملكوا شيئًا، قال تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (النساء/٥) فالأموال وإن كانت للأفراد بالملكية الخاصة ولكن القرآن عبر عنها بكلمة ﴿.. أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَامًا..﴾ (النساء/٥) إشارة إلى المسؤولية الملقاة على عاتق الجماعة باعتبارها هي التي تتحمّل أعباء الخلافة.

٣- وعلى ضوء مفهوم الخلافة فقد جُرّدت الملكية من الامتيازات المعنوية التي رافقتها واقترنت بوجودها، فليس هناك أي امتياز معنوي للغني على الفقير، ولا يجوز اقتران الملكية بأي نوع من القيمة الاجتماعية في العلاقات المتبادلة، فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام «من لقي فقيرًا مسلمًا فسلّم عليه خلاف سلامه على الغني لقي الله عزوجل يوم القيامة وهو عليه غضبان».

وندّد القرآن الكريم بهذه المقاييس التي تعتبر الثروة هي التي تطبع نوعية العلاقات والمعاملات الاجتماعية فيقول تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى، أَن جَاءهُ الأَعْمَى، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى، أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى، أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى، فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى، وَمَا عَلَيْكَ أَلا يَزَّكَّى، وَأَمَّا مَن جَاءكَ يَسْعَى، وَهُوَ يَخْشَى، فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ (عبس/ ١-٩).

وهكذا تذوب كل هذه الامتيازات على ضوء اعتبار أن الملكية خلافة، لها مسؤوليتها ووظيفتها، لاحقًا ذاتيًا.

٤- تتحول الملكية وفق هذا المفهوم من اعتبارها غاية إلى كونها مجرد وسيلة، إذ إن الإنسان الذي اندمج كيانه روحيًا ونفسيًا مع الإسلام ينظر إلى الملكية بوصفها وسيلة تحقق الهدف من الخلافة وإشباع الحاجات الإنسانية المتنوعة. فيقرر الرسول الكريم(ص) «ليس لك من مالك الا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت» والمال بهذا المنظار لا يكون تجميعًا وتكديسًا شَرِهًا لا يرتوي ولا يشبع.

تلك هي الصياغة الروحية والخلقية للملكية في الإسلام التي تكمل الصياغة المذهبية للملكية فتشكلان معا علاقة الإنسان بما يملك، علاقة سامية ذات نتاج ثر إيجابي معطاء.

الوسائل الخلقية والفكرية في تنمية الإنتاج

إن وسائل الإسلام في عملية التنمية الاقتصادية هي بالدرجة الأولى أخلاقية وفكرية، فالإسلام يشد الإنسان بالأرض ويدفعه في حركة مستمرة لاستثمار خيرات الطبيعة وفقًا لمقاييس معينة، وهذه المقاييس تضمن لهذا الإنسان الاستمرار في الحركة أولا، وعدم التجاوز على حركة الآخرين ثانيًا.

ففي الوقت الذي يجب أن يندفع الإنسان في الاستثمار وفق المقاييس الإسلامية يجب أن يبتعد عن الاعتداء فيقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وأعطي الإسلام بعد ذلك للعمل قيمة كبيرة وجعله مرتبطًا بكرامة الإنسان وأصبح الخمول والتقاعس والترفع عن العمل

وفق الصياغة الخلقية للإسلام نقصًا في إنسانية الإنسان وسببًا في تفاهته.

فعن رسول الله(ص) أنه قبّل يومًا يد عامل وقال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة، ومن أكل من كدّ يده مرّ على الصراط كالبرق الخاطف. ومن أكل من كدّ يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدًا. ومن أكل من كدّ يده حلالا فتح له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

وكان (ص) يسأل عن الشخص إذا أعجبه مظهره، فإن قيل له ليست له حرفة ولا عمل يمارسه، سقط من عينه ويقول: «إن المؤمن إذا لم تكن له حرفة يعيش بدينه».

وفي الحديث الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه الإنسان أو دابته الا وكتب له به صدقة».

وفي الحديث أن الامام الصادق(ع) سأل عن رجل فقيل: أصابته الحاجة وهو في البيت يعبد ربه، وإخوانه يقومون بمعيشته فقال(ع): «الذي يقوته أشد عبادة منه».

والإسلام بعد هذا يؤكد على استثمار مختلف مجالات الطبيعة: ﴿وهو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾.

هذا هو الإطار الفكري والخلقي الذي يضعه الإسلام لمفهوم العمل والعامل في الإسلام وفي هذا الإطار تتفجر طاقات الإنسان المسلم ويندفع في حركة مثمرة تكمل الجانب التشريعي في مبدأ عملية الإنتاج.

ملاحظة

هناك بعض النصوص الدينية تعطي للتعامل مع المادة والحياة نظرة سلبية وتحث الإنسان المسلم على ترك حب الدنيا نظير قول الرسول(ص) «من أحب دنياه أضرّ بآخرته» وعن الصادق(ع) «رأس كل خطيئة حبّ الدنيا» وعن الصادق(ع) أيضًا: «أبعد ما يكون العبد من الله إذا لم يهمه إلا بطنه وفرجه» وعن أمير المؤمنين علي(ع) «إن من أعون الأخلاق على الدين الزهد في الدنيا».

كل هذه النصوص توحي بالابتعاد عن التفاعل الإيجابي مع الحياة.. ولكن هدف هذه النصوص يتضح لو قارناها بنصوص أخرى وردت عنهم(ع).

قال رسول الله(ص): «نعم العون على تقوى الله الغنى». وعن الصادق(ع) «إن نعم العون على الأخرى الدنيا».

وعن الصادق(ع) أيضًا: «لاخير فيمن لا يحب جمع المال من حلال، يكفّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه».

وفي الحديث الشريف: «ليس منا من ترك دنياه لآخرته أو آخرته لدنياه»، فبتركيب نصوص المجموعة الأولى مع نصوص المجموعة الثانية نخلص إلى النتيجة التي رسمها الإسلام ليعطي مفهومه عن الثروة: وهو إن الثروة ليست غاية بل هي وسيلة يؤدي بها الإنسان المسلم دور الخلافة.

وبهذا المنظار سوف لا يكون تعامل الإنسان مع المادة شرهًا أنانيًا مخربًا، بل تعاملاً يضمن المصلحة العامة ويؤدي إلى سيطرة الإنسان نفسه على الثروة، لا أن يدفع الثروة تسيطر عليه وتسيّره.

أخلاقية الإسلام على خط الحياة

تتفق المدارس التي تؤمن أن (الإنسان) هو محور التغيير الاجتماعي على أن بداية التغيير هي تربية الإنسان وفق مفاهيم وقواعد معينة، وصياغة ذهنه وفق أخلاقية مرسومة، ولكنها تختلف فيما بينها في طريق التربية وترسيخ المفاهيم.

وأكاد أستطيع حصر الطرق التي تتبعها المدارس الأخلاقية في إعطائها للمفاهيم التربوية إلى قسمين:

المدرسة الأولى: وهي التي تتبع منهجًا معينًا ذا مراحل معينة في التربية. هذه المدرسة تمثلها الطريقة المسيحية ومن تأثر بها. وتتبع هذه المدرسة طريقة ما يشبه الدراسة الأكاديمية من حيث اجتياز الطالب لمراحل معينة في تربيته، ومن حيث أنها تعطى عن

طريق أستاذ وطالب بين جدران أربعة بمعزل عن الحياة الاجتماعية.

أما المدرسة الثانية: التي تمثلها التربية الإسلامية فهي تقف مع المدرسة الأولى على طرفي نقيض.

فهي لا تؤمن بمراحل ومناهج اكاديمية للتربية، ولا تؤمن بأن التربية تتم بالجلوس مع أستاذ بمعزل عن الممارسة العملية مع الواقع الاجتماعي. فالمناهج العملية التي رسمها الإسلام للإنسان المسلم في سياسته واقتصاده وتعامله مع المجتمع كلها مؤطرة بإطار اخلاقي.

ولا يستطيع الإنسان المسلم أن يعيش هذه الأطر الأخلاقية إلا بعد أن يمارس تلك المناهج العملية. فمع استمرار الإنسان في حركته وتفاعله وفق منهج الله وضمن شريعته يكتسب الاخلاقية التي أرادها الإسلام.

ولا تتحقق هذه الأخلاقية ولا تعطي ثمارها في الواقع الموضوعي إلا بالممارسة وبالتفاعل والتعامل المستمر.

من هنا نقول بأن أخلاقية الإسلام على خط الحياة تنبع من الممارسة العملية المرسومة. بل إن الأخلاقية هي النتجية الطبيعية للممارسة الاجتماعية وفق منهج الله تعالى.

تلك صورة شاهدنا في فصول الموضوع السالف، ونشهدها من حديث رسول الله(ص) يخاطب أبا ذر قائلاً: «يا أبا ذر إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا في سبيل الله فافعل».

إنه الإطار الأسمى الذي يعطيه الإسلام لكل تعامل للإنسان المسلم في الحياة. فهو يمارس أخلاقية معينة حتى في أكله وشربه. وهو بعد لا ينفك عن هذا الإطار طوال مسيرته الاجتماعية وفي كل منعطفات الحياة.

الأسباب الحضارية للتخلف

تناول المهتمون بقضايا العالم الإسلامي مسألة التطور الاقتصادي والتنمية الاقتصادية

من وجهة النظر المذهبية، وحاولوا أن يستكشفوا الأسباب الحضارية للتخلف القائم بين المسلمين . يرى كثير من الباحثين الغربيين أن هذا التخلف الاقتصادي يعود إلى روح التوكل واحتقار المادة والاستسلام للقدر والاعتماد على الفرص ، والعجز عن الخلق والإبداع الموجودة بين المسلمين (*الإسلام والتنمية الاقتصادية*، جاك اوستروي، ترجمة الدكتور نبيل صبحي الطويل، ومقدمة الاستاذ محمد المبارك).

يؤيد هذه النظرة الوضع القائم في العالم الإسلامي بكل ما يحيطه من تخلف في جميع مناحي الحياة، وما يدبّ فيه من ضعف وهوان، وما تعجّ به الثقافة الشعبية المعاصرة من روح كسل وبَطَر ولا مبالاة.

ويقف الباحثون المسلمون مدافعين عن الإسلام تجاه هذه الدعوى بأساليب مختلفة أهمها:

١ـ أسلوب الاستدلال بالنصوص الدينية.

٢- اسلوب استعراض التأريخ الإسلامي.

٣- صياغة النظرية الإسلامية.

٤- مهاجمة الحضارة الغربية.

٥- محاولة استكشاف الأسباب الحقيقية للتخلف.

١. أسلوب الاستدلال بالنصوص الدينية:

لا يخفى على باحث في الإسلام أن المسلمين ينظرون إلى النصوص الدينية في القرآن والسنة على أنها منهج لتنظيم أمور حياتهم في كل المجالات الخاصة والاجتماعية، والإنسان المسلم يرى نفسه مسؤولاً أمام الله في تطبيق هذه النصوص وتنفيذها بدقة. ومن هنا فإن لهذه النصوص دوراً مهمًا في صياغة حركة الإنسان وروابطه بالمجتمع والطبيعة. ومن حق الباحث أن يعود إليها ليرى كيف وجّه الإسلام أبناءه في حقل التنمية الاقتصادية.

في هذه النصوص نرى تأكيداً على أن مافي الأرض من نِعَم مادية إنما هي من عطاء الله للإنسان، فهي كلها إذن خيرات مصدرها الخير المطلق سبحانه، والإنسان المسلم بطبيعة تربيته يطلب الخير.

قال سبحانه: ﴿.. وأمددناكم بأموال وبنين...﴾ (الإسراء/٦)

﴿ويُمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً﴾ (نوح/ ١٢)

وقال: ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا﴾ (الإسراء/٦٦).

﴿... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس...﴾ (الحديد/٢٥).

﴿ولقد مكنّاكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش...﴾ (الأعراف/١٠).

﴿والأرض وضعها للأنام﴾ (الرحمن/١٠).

كما نرى في نصوص الكتاب العزيز حثًّا على ابتغاء فضل الله والحركة من أجل استثمار مواهب الطبيعة:

﴿فاذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله...﴾ (الجمعة/١٠).

﴿وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم...﴾ (الإسراء/١٢).

وثمة نصوص تربط بين «الخبز» وهو رمز الوفرة الاقتصادية والاكتفاء الذاتي في لغة هذه النصوص وبين حياة الدين واستمرار مسيرة الإنسان الروحية نحو الله. فعن النبي(ص): «اللهم بارك لنا في الخبز، ولا تفرّق بيننا وبينه» (*الكافي* ٥: ٧٣ و ٦:٢٨٧)، وعنه(ص): «فلولا الخبز ما صلينا..»(المصدر نفسه) وعنه: «فلولا الخبز ما صلينا ولا صُمنا»(المصدر نفسه).

والنصوص الدينية ـ من جهة أخرى ـ تحثّ على العمل، وتجعل الحركة في طلب الرزق عبادة والإهمال والكسل مفسدة وعبثًا، قال سبحانه: ﴿... هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾ (هود/٦١).

وعن رسول الله(ص) أنه قبّل يومًا يَد عامل وقال: «طلب الحلال فريضة على كل مسلم ومسلمة. ومن أكَلَ من كَدِّ يده مرّ على الصراط كالبرق الخاطف. ومن أكل من كدّ يده نظر الله اليه بالرحمة ثم لا يعذبه أبدًا. ومن أكل من كدّ يده حلالاً فتح له أبواب الجنة يدخلها من أيها شاء»(*بحارالأنوار* ١٠٣: ٩) وفي الحديث الشريف: «ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة الاّ كانت له به صدقة» (*جامع أحاديث الشيعة* ١٨: ٤٣١).

وتذهب النصوص إلى إعطاء العمل الاقتصادي نفسه قيمة سامية بغض النظر عن معطياته المادية. ففي الحديث: «إن قامت الساعة وفي يد أحدكم الفسيلة فإن استطاع أن لا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها» (المصدر نفسه).

ويتحدث صادق أهل البيت جعفر بن محمد(ص) للمفضل بحديث يبيّن فيه أن سنة الحياة تقتضي الحركة من أجل الانماء الاقتصادي وإلاّ فإن المجتمع يسقط في فراغ يتبعه عبث وفساد فيقول: «واعلم يا مفضل .. وجعل (الله) الخبزَ متعذرًا لا يُنال الاّ بالحيلة والحركة، ليكون للإنسان في ذلك شغل يكفّه عمّا يخرجه اليه الفراغ من الأشَرِ والعبث.»(*البحار* ٨٧: ٣ – *توحيد المفضل*:٨٧).

وتقرنُ بعض النصوص الفقرَ بالكفر، وهذا يعني أن الامة الفقيرة، أي الأمة التي تفتقد الحركة لاستثمار مواهب الطبيعة، هي أمة لا تصلح أن تكون مؤمنة. فالإيمان يقتضي الحركة على طريق الغني المطلق سبحانه، فعن النبي(ص): «كاد الفقر أن يكون كفرًا» (*الخصال* ١: ١٢).

وروى الصادق(ع) عن النبي(ص) أنه نادى الصلاة جامعة. فاجتمع الناس، فصعد النبي(ص) المنبر، فنعى اليهم نفسه فقال: «أذكّر الله الوالي من بعدي على أمتي.. ولم يُقرهم فيُكفرهم» (*الكافي* ١: ٤٠٦).

والنهي عن الكسل والتكاسل في طريق طلب المعيشة وردت فيه نصوص كثيرة،

وكلها تدعو إلى حركة دائبة على طريق تحسين الوضع الاقتصادي الفردي والاجتماعي. من ذلك: قول الإمام علي(ع): «إن الأشياء لما ازدوجت ازدوج الكسل والعجز فنتج بينهما الفقر» (*الكافي* ٨٦:٥).

فالكسل حالة نفسية تُضعف همّة الإنسان عن طلب مبتغاه، ويقترن بها العجز عن بلوغ الغايات في الواقع العملي. ونتيجة كل ذلك الفقر، الفقر في كل ما يحتاجه الفرد وتحتاجه الجماعة لمواصلة مسيرة الحياة بعزّة وكرامة.

وعن الإمام الصادق(ع) قال: «لا تكسلوا في طلب معايشكم فان آباءَنا قد كانوا يركضون فيها ويطلبونها» (*من لا يحضره الفقيه* ٣: ٩٥، باب ٥٨ في المعايش والمكاسب.. الحديث ١١).

والنصوص في كل هذه المجالات كثيرة جداً. وأختتمُ هذا الاستعراضَ بنص رائع عن أمير المؤمنين علي(ع) فيما رواه الصادق قال: «من وجد ماءاً وترابًا ثم افتقر فأبعده الله» (*الوسائل*:٢٤) أي إن من طبيعة الإنسان المسلم الذي يسير في طريق الكامل المطلق سبحانه أن يستثمر مواهب الطبيعة ويتفاعل معها. فالماء والتراب رمزان لهذه المواهب الطبيعية. ولا يمكن أن يتوفر «**الماء**» و«**التراب**» و«**الإيمان**» ثم يفتقر الإنسان. واذا توفر العنصران الأولان ثم افتقرَ فلابد أن يكون الخلل في العنصر الثالث.

هذه النصوص أسهمت بدون شك على مر العصور في صياغة ذهن الإنسان المسلم، وجعلته يتعامل مع الطبيعة تعاملال فاعلاً وفق معايير الإسلام، وكانت وراء ما شهدته الحضارة الإسلامية من ازدهار في عصورها الذهبية.

٢- أسلوب استعراض التأريخ الإسلامي:

سجّل التأريخ الإسلامي، في قرونه الاولى – بشكل خاص – صوراً رائعة من تفاعل الإنسان المسلم مع مواهب الطبيعة، ففجّر الأرض واستثمرها وساحَ فيها

واكتشف معالمها، وتطلّع إلى السماء، وتعرّف على مواقع نجومها، وركّب المواد وشخّص خصائصها، وغار في داخل جسم الإنسان وفهم طبيعة فسلجة أعضائه، وتعرّف على دائه ودوائه، ومارس عمارة المدن والطرق والجسور والسدود فأبدع فيها، ولم يمض على عصر صدر الإسلام زمن طويل حتى شهد العالم الإسلامي حضارة يشهد على عظمتها علماء الغرب ويقفون أمامها وقفة احترام وإجلال.

ومن المستشرقين الذين ألّفوا في هذا المجال جورج سارطون في كتابه: *الثقافة العربية في رعاية الشرق الاوسط*(نقله إلى العربية عمر فرّوخ، بيروت، ١٩٦٤م)، وكتابه: *تأريخ العلم القديم في العصر الذهبي* (ترجمة ابراهيم مدكور وغيره، القاهرة، ١٩٥٧ – ١٩٦١م)، وجويدي في كتابه: *علم الشرق وتأريخ العمران* (ترجمة محب الدين الخطيب، القاهرة، ١٩٣٠)، والدوبيلي في كتابه: *العلم عند العرب* (ترجمة عبدالحليم النجار ومحمد يوسف موسى، القاهرة، ١٩٦٢م)، وكارلونالينو في كتابه: *علم الفلك – تأريخه عند العرب في القرون الوسطى*.

وممن كتب في هذا المجال أيضًا: قدري حافظ طوقان في كتبه: *العلوم عند العرب*، *وتراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك*، *والتفكير العلمي عند العرب*، *وأثر العرب في تقدم الفلك*. وجرجي زيدان في كتابه: *تأريخ التمدن الإسلامي*، ومحمد كردعلي في كتابه: *الإسلام والحضارة الغربية*، وغيرهم كثير.

وهنا أودّ أن أقف عند ملاحظتين على هذا الأسلوب:

الأولى: أنها ركزت ـ سواء من قبل المستشرقين أو من قبل أكثر العرب ـ على دور «العرب» في بناء الحضارة الإسلامية، لا «المسلمين»، وهذا التركيز لا أظنه عفويًا، كما لا أحسن الظن فيه فأقول: إن المقصود بالعرب كل من تكلم العربية من المسلمين، فالنزعة القومية واضحة في هذه الأبحاث، وأعتقد أنها جاءت ضمن الموجة التي خطط لها الغرب وسار ضمنها العالم الإسلامي في جعل الأطروحة القومية مكان الطرح

الإسلامي، ومن ثم جعل الدويلات التي نشأت بعد اتفاقيات التقسيم تتغنى بأمجادها وتسكر على أنغام ذكريات ماضيها من دون أن تتقدم خطوة في مضمار الحضارة، ثم إن سلخ هذه الحضارة عن الإطار الإسلامي يبعد أذهان المسلمين عن الطاقة المحركة الهائلة التي أوجدت هذه الحضارة في الماضي ويمكن أن توجدها في المستقبل.

الثانية: إن الحديث عن أمجاد الماضي يجب أن يكون ضمن خطة شاملة تستهدف دفع المسيرة الاجتماعية نحو الحركة، عندئذ سيكون مثل هذا الحديث قادرًا على منح الفرد المتحرك ثقةً بنفسه وقدرةً على مواصلة الطريق من دون كلل أو ملل. أما إذا لم يكن ضمن هذه الخطة فإنه يتحول إلى انتفاخ وَرَمي يبعد الأذهان عن التفكير في تخلّف الواقع الراهن وعلاج هذا التخلف. وتحضرني هنا ملاحظة للمرحوم عباس محمود العقاد على الحروب الصليبية يذكر فيها أن الحروب الصليبية أضرت العالم الإسلامي من جهتين: الأولى: أنها أنهكت جسم العالم الإسلامي واستنزفت طاقاته وقواه المادية والبشرية، والثانية: أنها بسبب ما حققته من انتصارات عسكرية أورثت الأمة الإسلامية إفراطًا في الثقة برجحانها، وإفراطًا في سوء الظن بأعدائها، وقد كان هذا هو باب الخطر الجسيم إلى عدة قرون، قامت أوروبا بعدها مقام القيادة وتخلّف الشرق، وليس أخطر على الأمم من الاكتفاء بالذات، والاعتزاز بالرجحان في أمثال هذه الظروف» (*الإسلام في القرن العشرين*: ٤٦ – ٤٩، ط ٢).

والعبارة الأخيرة للعقاد صادقة في مجال التركيز على أمجاد الماضي، من دون أن ترافقه خطة نهوض وتحريك ودفع نحو الهدف المنشود.

٣- صياغة النظرية الإسلاميّة

لكل مدرسة فكرية نظريتها الخاصة للتعامل مع الطبيعة، وهذه النظرية تشكل الأساس الذي يتحرك عليه الإنسان والمجموعة البشرية لبناء الحضارة.

وصاغ المفكرون الإسلاميون نظرية «الاستخلاف» لتعبّر في جانب منها عن الإطار الإسلامي لتعامل الإنسان مع الطبيعة. «الإنسان بوجه عام مستخلف من الله في هذه الأرض لعمارتها واستثمار خيراتها، سلّطه الله عليها فأعطاه القدرة على تسخيرها وتسخير سائر الكون لمنافعه بما وهبه من الحواس والعقل وسائر الصفات الجسمية والعقلية التي تجعله أهلاً لذلك على تفاوت بين أبناء البشر» (*نظام الإسلام، الاقتصاد*، محمد المبارك: ٢١).

الآيات الكريمة التي تستند اليها هذه النظرية كثيرة منها:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة...﴾ (البقرة/٣٠).

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم...﴾ (الانعام/١٦٥).

﴿... وانفقوا مما جعلكم مستَخلَفين فيه...﴾ (الحديد/٧).

ووفق هذه النظرية يتحمل الإنسان المسلم مسؤولية القيام بأعباء الخلافة في الأرض، مسؤولية الخلق والإبداع والتصرف في قوانين الطبيعة واستخدامها بقدر ما وهبه الله من قدرة، ولا يمكن لإنسان يعيش هذا المفهوم أن يظل خاملاً متواكلاً غير متفاعل مع قوانين الكون والطبيعة، وغيرَ عامل على تسخيرها على طريق تحقيق مسؤوليات الخلافة.

يقول السيد محمد باقر الصدر عن هذا المفهوم: «... ولا أعرف مفهومًا أغنى من مفهوم الخلافة لله في التأكيد على قدرة الإنسان وطاقاته التي تجعل منه خليفة السيد المطلق في الكون، كما لا أعرف مفهومًا أبعد من مفهوم الخلافة لله عن الاستسلام للقدر والظروف لأن الخلافة تستبطن معنى المسؤولية تجاه ما يُستخلف عليه، ولا مسؤولية بدون حرية وشعور بالاختيار والتمكن من التحكم في الظروف. وإلاّ فأي استخلاف هذا إذا كان الإنسان مقيداً أو مسيّرًا..؟! (*اقتصادنا*، مقدمة الطبعة الثانية: ٢٤).

٤- مهاجمة الحضارة الغربيّة:

حين صحا العالم الإسلامي في العصر الحديث من سباته راح يفكر في سبيل لاستعادة وجوده، لكن تفكيره كان ممزوجًا بآثار النوم الطويل وبروح الهزيمة التي مُني بها على يد المستعمر. وماكانت هزيمة العالم الإسلامي اقتصادية وعسكرية فحسب بل ونفسية أيضًا. ومن هنا راح – مدفوعًا بروح الهزيمة – يستجدي المناهج الغربية ليجد فيها البلسم لجراحه. وبذلك عمّق روح الهزيمة في حياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وواجه الفشل الذريع في تطبيق الوصفات الغربية وخاصة في مجال التنمية الاقتصادية. وأمام هذا الانبهار بروح الغرب اتخذ بعض المفكرين الإسلاميين أسلوب مهاجمة الحضارة الغربية، وأرادوا بهجومهم هذا أن يخاطبوا الإنسان المسلم قائلين له: إن العالم بأجمعه يعيش اليوم حالة تخلف حضاري، لا العالم الإسلامي وَحده. وهذا اللون من الخطاب يبعد عن المسلمين روح الإحساس بالهزيمة ويدفعهم نحو التأصيل الحضاري في عملية التنمية الاقتصادية.

يقول سيد قطب: «إن مقياس الرقي الحضاري في نظر الإسلام هو حين يقوم (الإنسان) بالخلافة عن (الله) في أرضه على وجهها الصحيح: بأن يخلصَ عبوديته لله ويخلص من العبودية لغيره، وأن يحقق منهج الله وحده، ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره، وأن يحكّم شريعة الله وحدها في حياته وينكر تحكيم شريعة سواها، وأن يعيش القيم والأخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والأخلاق المدّعاة، ثم بأن يتعرّف بعد ذلك كله إلى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي، ويستخدمها في ترقية الحياة، وفي استنباط خامات الأرض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله إياها، وجعل تلك النواميس أختامها، ومنح الإنسان القدرة على فضِّ هذه الأختام بالقدر الذي يلزمه له في الخلافة.. أي حين ينهض بالخلافة في الأرض على عهد الله وشروطه، ويصبح يفجّر ينابيع الرزق ويصنّع المادة الخامة، ويقيم الصناعات المتنوعة، ويستخدم ما تتيحه

له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الإنسان في تأريخه كله.. حين يصبح وهو يصنّع هذا (ربانيًا) يقوم بالخلافة عن الله ـ على هذا النحو ـ عبادة لله... يكون هذا الإنسان كامل الحضارة ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة» (*معالم في الطريق*، سيد قطب: ١١٤، ١١٥).

وهذا يعني أن الغرب اليوم متخلف حضاريًا رغم تطوره الصناعي والاقتصادي.

ومن المفكرين من يرى أن الحضارة الغربية تعاني أزمة أخلاقية، وهذه الأزمة ناتجة عن افتقادها المقاييس الإنسانية في التوجه، ولذلك فهي غير قادرة على حل مشكلة البشرية.

يقول مالك بن نبي: «لاشك أن الآلات الحاسبة التي استخدمها الإنسان الحديث لتكون مقياس حضارته عجيبة رائعة، شريطة أن لا تندس حبة من الرمل بين أجزاء المحرك... إذ إن بعض حبات الرمل التي تسبب خطأ في الحساب قد تؤدي إلى ملايين القتلى وما لاحدّ له من الهدم والتخريب.. واحتكاك طفيف بين أجزاء الماكنة الحسابية كشف عن أزمة السرطان الأخلاقي الذي يلتهم الحضارة، ودلل بشكل لا يقبل الشك أن النهضة الفنية وحدها عاجزة برسومها ومعادلاتها عن حلّ المشكلة الإنسانية» (*وجهة العالم الإسلامي*، مالك بن نبي).

ونرى في كتب الإسلاميين استدلالات كثيرة على لسان المفكرين الأوربيين أنفسهم بشأن أزمة الحضارة الغربية، كما فعل سيد قطب في كتابه: *المستقبل لهذا الدين*، حيث نقل كثيرًا عن الدكتور الكسيس كاريل في كتابه *الإنسان ذلك المجهول* وعن دالس في كتابه حرب *أم سلام* (*المستقبل لهذا الدين*، فصل صيحات الخطر: ٧٠ – ٩٤).

٥- محاولة استكشاف أسباب التخلف:

حين يعالج الباحثون الإسلاميون أسباب مشكلة التخلف الاقتصادي في العالم الإسلامي، يرفضون أن تكون قلة الثروات أو الامكانات البشرية من هذه الأسباب،

فمصر ـ على سبيل المثال – تملك من هذه الثروات مالا تمتلكه اليابان، ولكن أين مصر من اليابان في مجال التنمية الاقتصادية؟!

ويجمع الباحثون الإسلاميون على أن سبب التخلف الاقتصادي في العالم الإسلامي وفشل خطط التنمية في البلاد الإسلامية يعود إلى غياب الإسلام عن ساحة الحياة في هذه البلاد. ولا يمكن للإنسان المسلم أن يسجل نجاحًا في حقل ممارسة نشاطات التنمية الاقتصادية إلاّ في ظل النظام الإسلامي، وفي ظل توجّه حضاري إسلامي.

يقول محمد باقر الصدر: «حين نريد أن نختار منهجًا أو إطارًا عامًا للتنمية الاقتصادية داخل العالم الإسلامي يجب أن نأخذ هذه الحقيقة أساسًا ونفتش في ضوئها عن مركب حضاري قادر على تحريك الأمة وتعبئة كل قواها وطاقاتها للمعركة ضد التخلف، ولابدّ حينئذ أن نُدخل في هذا الحساب مشاعر الأمة ونفسيتها وتأريخها وتعقيداتها المختلفة» (*اقتصادنا*: ١٣ – ١٤).

ويقصد بالحقيقة المذكورة أعلاه: «أن حاجة التنمية الاقتصادية إلى منهج اقتصادي ليست مجرد حاجة إلى إطار من أطر التنظيم الاجتماعي تتبناه الدولة فحسب .. ولا يمكن للتنمية الاقتصادية والمعركة ضد التخلف أن تؤدي دورها المطلوب إلاّ إذا اكتسبت إطارًا يستطيع أن يدمج الأمة ضمنه وقامت على أساس يتفاعل معها. فحركة الأمة كلها شرط أساسي لإنجاح أيّ تنمية اقتصادية وأي معركة شاملة ضد التخلف لأن حركتها تعبير عن نموّها ونموّ إرادتها وانطلاق مواهبها الداخلية» (المصدر نفسه: ١٣).

ثم يتحدث السيد الصدر عن الأخلاقية الماثلة في وجدان الأمة الإسلامية، ويرى أن هذه الأخلاقية «يمكن الاستفادة منها في المنهجة للاقتصاد داخل العالم الإسلامي، ووضعه في إطار يواكب تلك الأخلاقية لكي تصبح قوة دفع وتحريك كما كانت أخلاقية مناهج الاقتصاد الأوربي الحديث عاملاً كبيرًا في إنجاح تلك المناهج لما بينها من انسجام» (المصدر نفسه:٢٢).

فسلبيات التنمية الاقتصادية تعود ـ إذن ـ إلى انفصال المناهج الاقتصادية المطبقة حديثًا في العالم الإسلامي عن المزيج الحضاري بكل مافيه من عقيدة وتأريخ للأمة. وهذه الظواهر المشهودة من الزهد أو القناعة أو الكسل تعود إلى انفصال الأرض عن السماء. «أما إذا ألبست الأرض إطار السماء، وأعطي العملُ مع الطبيعة صفةَ الواجب ومفهومَ العبادة فسوف تتحول تلك النظرة الغيبية لدى الإنسان المسلم إلى طاقة محركة وقوة دفع نحو المساهمة بأكبر قدر ممكن في رفع المستوى الاقتصادي» (المصدر نفسه).

ومن المفكرين من يرى أن «مسألة المسائل» التي تحول دون التقدم والتنمية في العالم الإسلامي هي السلطة السياسية (*الإسلام المعاصر*، رضوان السيد: ٦٢) ويرى أن هذه السلطة السياسية تفرز سلوكيات خاصة تحول دون تحرك المجتمع نحو الهدف المنشود ونحو التضحية من أجل هذا الهدف.

وإنما تشكل السلطة السياسية عقبة في طريق حركة المجتمع بسبب الغربة بين السلطة والمجتمع، وهذه الغربة «تدفع النُخَب المسيطرة إلى السلوك إزاء المجتمع سلوك الخائف الباطش. إنها ترشو بعض الفئات التي تعتقد تأثيرها في مسألة بقائها في السلطة، وتستعين بها على المجتمع، وتعمل على نهب ثروات مجتمعاتها» وبسبب هذه الغربة أيضًا «فإن الحاكمين في دار الإسلام يرتكبون أخطاء كثيرة في مجال فهم تأريخ مجتمعهم ورغباته وتطلعاته المستقبلية» (المصدر نفسه).

هذه السلطة تشكل ـ إذن ـ عقبة حضارية في المجتمع الإسلامي ولولاها لتحرك المجتمع الإسلامي نحو أهدافه المنشودة مدافعًا عن شخصيته وكرامته وعزّته . يذكر رضوان السيّد مثالين شاهدهما بنفسه عن موقفين من مواقف الشعب المصري تجاه التحديات الاقتصادية اتخذ منهما الشعب المصري المسلم نهجين متباينين: «الأول: عام ١٩٦٥ – ١٩٦٦ عندما شاع في الشارع المصري أن الولايات المتحدة قطعت هبات القمح عن البلاد. والثاني: عام ١٩٧٧ عندما حدثت الاضطرابات الاجتماعية التي

عُرفت بثورة الخبز: تلقّت جماهير الشارع المصري مخاوف وإشاعات نقص الخبز والمجاعة في المناسبة الأولى بغضب وحماس واستعداد للتضحية، وثارت وخرّبت في المناسبة الثانية لرفعٍ غير كبير لأسعار المواد الغذائية».

ثم يعلل الكاتب سبب التمايز بين هذين الموقفين فيقول: «كانت الجماهير في المناسبة الاولى مقتنعة (بحق أو بغير حق) أن الإجراءات الأمريكية موجهة ضدها هي، وضد جهود التنمية والمستقبل في البلاد. بينما اعتقدت في المناسبة الثانية أنه ليس هناك مسوغ للتضحية مهما صغرت» (المصدر نفسه:٦٣) «إن مجتمعاتنا التي لم تعتد الرفاه أو الدلال، مستعدة للتضحية بكل مرتخص وغال إذا اقتنعت أن ذلك يدفع العدوّ الخارجي، أو يؤمن المستقبل لأطفالها وأجيالها القادمة. لكن كيف نطلب إلى هذه الفئات الاجتماعية أن تضحي بالقليل والكثير من أجل لا شيء أو من أجل استقرار الحاكمين واستمرارهم فقط»؟!

ويرى الكاتب أن السلطة السياسية في العالم الإسلامي تحول دون اندماج الأمة بإطارها الحضاري، ومن ثم تحول دون التحرك نحو المستقبل: «إن مجتمعاتنا الإسلامية هي مجتمعات تأريخية من الطراز الأول، فما تزال أمجاد الماضي ومسؤولياته العالمية تتنزى في أعماقها وتهبها قوة على البقاء وآمالاً عراضًا في المستقبل، وهذا إن اقتنعت أن السلطة سلطتها هي والمستقبل مستقبلها هي» (المصدر نفسه).

«المثل الأعلى» والتنمية الاقتصادية:

لاحظنا فيما سبق تأكيدًا على ضرورة «الحركة» حركة الأمة من أجل تحقيق التنمية الاقتصادية، وهذه الحركة هي أساس الحضارة. ويمكننا أن نقول من دون أن نخشى زللاً: إن الأمة المتحضرة هي الأمة المتحركة. وكل الحضارات نشأت على أثر حركة الأمم، ولذلك نشأت الحضارات الكبرى عقب الهجرات البشرية. وشاءت سنة الكون أن

تكون اللبنة الأولى لإقامة الحضارة الإسلامية أرضَ المدينة المنورة، أرض الهجرة.

والإسلام إنما شيّد حضارته الكبرى حينما حرّر المجموعة المسلمة مما يكبّلها ويقيّدها ويصدّها عن الحركة. وقال لها: ﴿وجاهدوا في الله حقّ جهاده...﴾ (الحج/٧٨)، ﴿.. فانفروا ثبات أو انفروا جميعًا﴾ (النساء/٧١)، ﴿قل إنما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى...﴾(سبأ/٤٦) ، ﴿قل سيروا في الارض..﴾ (الانعام/١١، النمل: ٦٩، العنكبوت:٢٩، الروم: ٤٢) ﴿فسيحوا في الارض..﴾(التوبة/٢)، ﴿.. فاستبقوا الخيرات...﴾(البقرة/ ١٤٨، المائدة:٤٨) ﴿... قالوا كنا مستضعفين في الارض، قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها...﴾(النساء/ ٩٧) ﴿... ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض....﴾ (البقرة/٢٥١).

هذا الدفع العظيم للحركة نحو «مثل أعلى» وضعه الإسلام نُصب أعين الجماعة المسلمة هو الذي خلق الحضارة الجديدة.

وهنا أرى من اللازم أن أستعرض بايجاز نظرية القرآن الكريم في حركة المجتمع – كما استنبطها الشهيد محمد باقر الصدر ـ رضوان الله عليه ـ وهي نظرية نشوء الحضارات بتعبير آخر، لنرى أنّ الأمة المسلمة هي الأمة المتحركة على طريق لانهائي للتطور التكاملي، يكون فيها مجال التطور والابداع والنمو قائمًا أبدًا ودائمًا (*مقدمات في التفسير الموضوعي*، ط دار التوجيه الإسلامي، ١٥٣).

وفق هذه النظرية تنقسم المجتمعات البشرية إلى ثلاثة أصناف:

١ـ صنف فقد الرؤية المستقبلية وأصبحت حياته تكرارية لا تقدم فيها ولا تطور ولا إبداع.

٢- مجتمع وضع نصب عينيه طموحًا مستقبليًا محدوداً.

٣- مجتمع اتجه على طريق تكاملي لا نهائي.

والاختلاف بين هذه المجتمعات يعود إلى «المثل الاعلى» الذي تتبناه، أو إلى «الإله» الذي تعبده بالتعبير القرآني.

المجتمع الأول: مثله الأعلى مستمد من واقع ما تعيشه الجماعة البشرية من ظروف وملابسات، ويتحول هذا الواقع من أمر محدود إلى هدف مطلق لا تتصور الجماعة شيئًا وراءه. وفي هذه الحالة تكون حركة التأريخ حركة تكرارية، ولا يكون المستقبل إلا تكرارًا للواقع والماضي.

والنوع الثاني من المجتمعات: مثله الأعلى، أو إلهه مشتق من طموح الأمة ومن تطّلعها نحو المستقبل وإلى الإبداع والتطوير، لكنه مثل أعلى محدود يحوله الإنسان إلى مطلق. ويستطيع هذا المثل الأعلى أن يحقق للمجتمع من النمو بقدر إمكاناته المستقبلية، لكنه سرعان ما يصل إلى حدوده القصوى ويستنفد أغراضه ويتحول إلى عائق للمسيرة.

ولقد رأينا في عمرنا القصير فشل كثير من هذه المثل العليا في الاستمرار بمسيرة المجتمع نحو كماله المنشود، بعد أن استطاعت تحقيق حركة اجتماعية محدودة على هذه المسيرة. فالحرية في العالم الغربي بعد أن حققت شوطًا في مضمار الإبداع والتطوير تحولت إلى مأساة بشرية تهدد العالم اليوم بخطر السحق والإبادة والدمار. والاشتراكية التي رفع الشرق شعارها استطاعت أن تحرك طموحات المستضعفين زمنًا، لكنها كانت كبيت العنكبوت انهار بنفخة البيريسترويكا ﴿... وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(العنكبوت/ ٤١). ويعبّر القرآن عن هذه المثل العليا بأنها ﴿... كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (النور/ ٣٩).

والنوع الثالث: مَثَله الأعلى هو «الله» سبحانه وتعالى. والكائن المحدود في مثل هذا المجتمع يتحرك على طريق لا ينتهي. ومجال الإبداع والتطور التكاملي أمام الإنسان في مثل هذا المجتمع لا نهائي. والتغيير الذي يحدث في هذه الحركة كمي وكيفي لا مجال لذكره في هذا الاستعراض العاجل. والحركة الضخمة التي شهدتها فترة صدر الإسلام

كانت بفضل انفجار الطاقات الخلاقة على طريق هـذا المثـل الأعلـى. وكـل مـا شـهده التأريخ الإسلامي من حضارة وازدهار علمي واقتصادي وتفاعل بين الإنـسان المـسلم والطبيعة إنما كان من آثار تلك الدفعة الهائلة التي تحرّك بها المجتمع الإسلامي في عصوره الأولى. وهذا العطاء مستمر حتى يومنا هذا رغم ما أحاط بالأمـة المـسلمة مـن هزيمـة نفسية وخمول وخمود وسيطرة فرعونية.

تلخيص واستنتاج:

١- التنمية الشاملة في المجتمع هي التي تحقّق كرامة الإنسان وعزّتـه وتتجـه بـه إلى الكمال في الجوانب المادية والمعنويّة. وهذا مالا يتحقق في إطـار الأنظمـة الماديّـة الـتي تجعل من المصالح الاقتصادية حافزًا أساسيًا للتنمية. فهذا الحافز قد يـؤدّي إلى تـسجيل انتصار مادي في حقل استثمار مواهب الطبيعة، لكنه يقترن بتكالب محموم يـصادر كـل قيم الإنسانية.

٢- المنهج الإسلامي في التنمية الذي يقوم على أساس تزكيـة الإنـسان هـو الـذي يستطيع أن يحقق طموح البشرية في حياة حرّة كريمة. وبالمناسبة فإن التزكية من «زكـا» أي «نما» فالتزكية هي التنمية الشاملة بـالمعنى الإسـلامي، وتبـدأ مـن تغـيير المحتـوى الداخلي للإنسان لتحل كل التناقضات بينه وبين الطبيعـة وبينـه وبـين أخيـه الإنـسان، وتخلق تفاعلاً ايجابيًا بين الكائن البشري والأرض وفق مفاهيم الاستخلاف.

٣ـ إن مـشكلة العـالم الإسـلامي في مجـال التنميـة الاقتـصادية لا تعـود إلى قلـة الإمكانات المادية والبشرية، بل تعود إلى عدم وجود الطاقة الحركية بين المسلمين.

٤- إن المسلمين يمتلكون بين ظهرانيهم طاقة كامنة تتمثل في الدين المـبين، ويـشهد التأريخ أن هذه الطاقة الكامنة لو تفجرت لخلقـت أفـضل وأروع ألـوان التفاعـل بـين الإنسان والطبيعة.

٥- الإنماء الاقتصادي لا يتحقق إلاّ ضمن حركة حضارية تشمل كلّ جوانب الحياة الاجتماعية.

٦- هذه الحركة الحضارية لا يمكن أن تتحقق إلاّ بشدّ الفرد والجماعة إلى مَثَل أعلى. وإذا انشدت المسيرة إلى المثل الاعلى الحق المطلق سبحانه، فإن مسيرتها ستكون مصونة من أي تلكّؤ أو توقف أو عدوان.

٧- كل العوائق التي تحول دون اندماج الأمة بعقيدتها وإيمانها وعواطفها وتأريخها إنما تعمل على ابتعاد الأمة عن شخصيتها وذاتها وحركتها الحضارية، وبالتالي عن تحقيق الإنماء الاقتصادي في بلدانها.

٨- إن الصحوة التي تعمّ العالم الإسلامي اليوم تبشّر بولادة حضارية إنسانية جديدة تحمل كل مقومات الإبداع والتطوير والتعامل الفاعل مع الطبيعة وتبتعد عما بليت به الحضارة المادية من صراع دموي وتكالب محموم وإبادة ودمار.

رئيس التحرير